مجموعة أمهات المؤمنين

بإشراف محمّد أحمد برانق

١٢

زَيْنَبُ بنْتُ جَحْشٍ



دار المعارف بمصر

مجموعة أمهات المؤمنين

بإشراف محمد أحمد برانق
المفتش الأول بوزارة التربية والتعليم بمصر (سابقا)

١٢

زَيْنَبُ بنتُ جَحْشٍ

الطبعة الثالثة



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

١

« يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي وَاللهِ مَا أَنَا كَأَحَدٍ مِنْ نِسَائِكَ ، لَيْسَتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَائِكَ إِلَّا زَوَّجَهَا أَبُوهَا ، أَوْ أَخُوهَا وَأَهْلُهَا — غَيْرِي — زَوَّجَنِيكَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ » .

هٰذَا الْكَلَامُ قَالَتْهُ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ يَوْمًا لِزَوْجِهَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ تُذَكِّرُهُ فِيهِ بِمَا شَرَّفَهَا اللهُ ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهَا بِهِ إِذْ زَوَّجَهَا مِنْ رَسُولِهِ بِأَمْرٍ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ ، فَكَانَ هٰذَا الْأَمْرُ قُرْآنًا يُقْرَأُ ، وَآيَاتٍ تُتْلَى ، عَلَى مَرِّ السِّنِينَ ، وَتَوَالِي الْأَعْوَامِ .

وَكَمَا كَانَتْ زَيْنَبُ تُذَكِّرُ رَسُولَ اللهِ بِمَا أَوْلَاهَا اللهُ ، كَانَتْ كَذٰلِكَ تَفْخَرُ وَتَتِيهُ عَلَى سَائِرِ نِسَاءِ النَّبِيِّ بِقَوْلِهَا لَهُنَّ : زَوَّجَكُنَّ أَهْلُكُنَّ ، وَزَوَّجَنِي اللهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمٰوَاتٍ .

فَمَا هِيَ قِصَّةُ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ؟ وَلِمَ أَنْزَلَ اللهُ أَمْرَ تَزْوِيجِهَا لِرَسُولِهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمٰوَاتٍ ؟ فَأَوْلَاهَا مَا أَوْلَاهَا مِنْ شَرَفٍ وَفَخْرٍ ! !

كَانَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ بِنْتًا لِأُمَيْمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، عَمَّةِ رَسُولِ اللهِ ، وَكَانَتْ حِينَ نُزُولِ وَحْيِ اللهِ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَبَعْثِهِ نَبِيًّا ؛ فَتَاةً شَابَّةً جَمِيلَةً ، تَعِيشُ فِي دَارِ أَهْلِهَا بَنِي جَحْشٍ بِمَكَّةَ .

وَأَسْلَمَ لِمُحَمَّدٍ آلُ بَيْتِهِ، وَأَسْلَمَ لَهُ صَدِيقُهُ الْحَمِيمُ أَبُو بَكْرٍ، وَدَعَا أَبُو بَكْرٍ النَّاسَ إِلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ، فَدَخَلَ فِي الإِسْلَامِ بِدَعْوَتِهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ ، كَانَ فِيهِمْ مِنْ بَنِي جَحْشٍ إِخْوَةُ زَيْنَبَ: عَبْدُ اللهِ ، وَعُبَيْدُ اللهِ ، وَعَبْدٌ مِنْ عَبِيدِهِمْ ، وَأَسْلَمَتْ زَيْنَبُ بِإِسْلَامِ إِخْوَتِهَا ، وَأَسْلَمَتْ مَعَهَا أُخْتَاهَا : حَمْنَةُ ، وَأُمُّ حَبِيبٍ ، فَكَانُوا جَمِيعًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ . وَحِينَمَا تَتَابَعَ النَّاسُ فِي الدُّخُولِ إِلَى الإِسْلَامِ ،وَحِينَمَا آذَتْ قُرَيْشٌ الْمُسْلِمِينَ ،وَاضْطَهَدَتْهُمْ لِتَفْتِنَهُمْ فِي دِينِهِمْ ، وَلِتُعِيدَهُمْ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَإِشْرَاكٍ بِاللهِ أَذِنَ مُحَمَّدٌ لِأَتْبَاعِهِ فِي الْهِجْرَةِ هَرَبًا مِنْ تَعْذِيبِ قُرَيْشٍ ، وَفِرَارًا مِنْ أَذَاهَا ؛ وَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْحَبَشَةِ ؛ لِأَنَّهَا أَرْضُ صِدْقٍ ، وَبِهَا مَلِكٌ لا يُظْلَمُ بِجِوَارِهِ أَحَدٌ .

وَهَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وكَانَ فِى هؤُلَاء الْمُهَاجِرِينَ مِنْ إِخْوَةِ زَيْنَبَ : عَبْدُ اللهِ ، وَعُبَيْدُ اللهِ .

وَبَلَغَ الْمُهَاجِرِينَ بِالْحَبَشَةِ أَنَّ نَفَرًا كَبِيرًا مِنْ أَبْنَاء قُرَيْشٍ قَدْ دَخَلُوا فِى الْإِسْلَامِ ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ قَدْ عَزُّوا ، وَبَعُدَ عَنْهُمُ الاضْطِهَادُ ، لِذَلِكَ رَأَى نَفَرٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَنْ يَعُودُوا إِلَى وَطَنِهِمْ وَدِيَارِهِمْ ، فَكَانَ أَنْ عَادُوا ، وَكَانَ فِيمَنْ عَادُوا : عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ ، أَخُو زَيْنَبَ .

وَلَكِنَّ الْأَنْبَاءَ قَابَلَتِ الْعَائِدِينَ تَرْوِى لَهُمْ غَيْرَ مَا بَلَغَهُمْ بِالْحَبَشَةِ ؛ فَعَرَّفَتْهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِى الْإِسْلَامِ مِنْ أَبْنَاء مَكَّةَ غَيْرُ نَفَرٍ قَلِيلٍ ، وَأَنَّ قُرَيْشًا زَادَتْ فِى إِيذَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَضَاعَفَتْ مِن اضْطِهَادِهِمْ . وَعَلَى ذَلِكَ رَأَى نَفَرٌ مِنْ هؤُلَاء الْعَائِدِينَ أَنْ يَدْخُلُوا إِلَى مَكَّةَ ، يُعَانُونَ مَا يُعَانِى الْمُسْلِمِينَ فِيهَا ، وَاسْتَصْوَبَ الْآخَرُونَ أَنْ يَعُودُوا مِنْ حَيْثُ أَتَوْا . وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ مَكَّةَ ، مَعَ مَنْ دَخَلُوا ، وَظَلَّ بِهَا حَتَّى أَذِنَ النَّبِىُّ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَكَانَ عَبْدُ اللهِ وَأَهْلُهُ

وَأَخَوَاتُهُ مِنْ أَوَائِلِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَبِي سَلَمَةَ وَزَوْجَتِهِ . وَكَانَتْ دَارُ آلِ جَحْشٍ بِمَكَّةَ أَوَّلَ دَارٍ بَعْدَ دَارِ أَبِي سَلَمَةَ وَزَوْجَتِهِ، تُرِكَتْ يَبَابًا قَفْرًا بَعْدَ هِجْرَةِ أَهْلِهَا مِنْهَا . وَتَزَوَّجَتْ حَمْنَةُ مِنْ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ، وَكَانَ مِنْ أَجْمَلِ شُبَّانِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ سَبَقُوا إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَشْرَفِهِمْ ، وَآنَقِهِمْ .

وَتَزَوَّجَتْ أُمُّ حَبِيبٍ مِنْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ عَوْفٍ ، وَهُوَ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ ، الَّذِينَ لَبَّوُا الدَّعْوَةَ إِلَى الْإِسْلَامِ حِينَمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَبَقِيَتْ زَيْنَبُ الشَّرِيفَةُ ، الصَّالِحَةُ ، الْجَمِيلَةُ ، الْفَاتِنَةُ تَنْتَظِرُ الزَّوْجَ الَّذِي يَتَسَاوَى مَعَ شَرَفِهَا ، وَيُضَارِعُ حَسَبُهُ وَنَسَبُهُ حَسَبَهَا وَنَسَبَهَا .

٢

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ إِلَى آلِ جَحْشٍ يَخْطُبُ زَيْنَبَ.

وَفَرِحَ آلُ جَحْشٍ لِذٰلِكَ أَشَدَّ الْفَرَحِ. أَمَّا زَيْنَبُ فَكَانَ فَرَحُهَا أَشَدَّ مِنْ أَنْ يُوصَفَ، وَكَانَ سُرُورُهَا أَعْمَقَ مِنْ أَنْ يُحْكَى، أَوْ يُعَبَّرَ عَنْهُ.

وَلٰكِنْ، كَمْ كَانَ أَسَفُ آلِ جَحْشٍ، وَكَمْ كَانَ حُزْنُ زَيْنَبَ وَجَزَعُهَا، حِينَمَا عَلِمُوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ لَمْ يَخْطُبْ زَيْنَبَ لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا خَطَبَهَا لِمَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَيُعِزُّهُ، وَيُنْزِلُهُ مِنْهُ مَنْزِلَةَ الْوَلَدِ.

وَأَبَتْ زَيْنَبُ أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنْ مَوْلًى، وَرَفَضَ أَخُوهَا عَبْدُ اللهِ أَنْ يُزَوِّجَهَا إِلَّا مِنْ شَرِيفٍ يُضَارِعُهَا حَسَبًا وَنَسَبًا.

وَلٰكِنَّ رَسُولَ اللهِ كَانَ يُرِيدُ بِهٰذَا الزَّوَاجِ أَنْ يَمْحُوَ الْفُرُوقَ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ، وَأَنْ يُزِيلَ مَا كَانَ يُقِيمُهُ الْعَرَبُ مِنْ

فَوَاصِلَ بَيْنَ الْأَشْرَافِ وَالْمَوَالِي ، وَبَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ جَمِيعَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ سَوَاسِيَةً ، لَا فَرْقَ بَيْنَ شَرِيفٍ وَمَوْلًى ، وَلَا بَيْنَ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ ، وَلَا بَيْنَ عَرَبِيٍّ وَعَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى.

وَهٰكَذَا تَخَيَّرَ النَّبِيُّ بِنْتَ عَمَّتِهِ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ لِتَكُونَ الْمِثَالَ الَّذِي تَحْتَذِيهِ بَنَاتُ الْعَرَبِ فِي زَوَاجِ الشَّرِيفَاتِ مِنَ الْمَوَالِي ، وَقُدْوَةً لَهُنَّ فِي الزَّوَاجِ مِمَّنْ هُمْ دُونَهُنَّ حَسَبًا وَنَسَبًا .

وَتَخَيَّرَ النَّبِيُّ زَوْجًا لِزَيْنَبَ مَوْلَاهُ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ الَّذِي رَبَّاهُ وَتَعَهَّدَهُ مُنْذُ أَنْ وَهَبَتْهُ لَهُ زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَهُوَ بَعْدُ صَبِيٌّ حَدَثٌ .

فَقَدْ عَادَتْ خَدِيجَةُ يَوْمًا مِنْ زِيَارَةٍ لِابْنِ أُخْتِهَا حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ، وَكَانَ ذٰلِكَ قَبْلَ بَعْثَةِ الرَّسُولِ بِبِضْعِ سِنِينَ ، وَمَعَهَا غُلَامٌ وَضِيءٌ ، تَبْدُو عَلَيْهِ آثَارٌ مِنَ الرَّفَاهَةِ وَالنِّعْمَةِ . وَلَمَّا سَأَلَ مُحَمَّدٌ خَدِيجَةَ :

مَنْ يَكُونُ هٰذَا الْغُلَامُ يا خَدِيجَةُ ؟

أَجَابَتْ : وَهَبَنِي إِيَّاهُ ابْنُ أَخِي حَكِيم مِنْ رَقِيقٍ أَتَى بِهِ مَعَهُ مِنَ الشَّامِ .

فَقَالَ مُحَمَّدٌ : وَاللهِ إِنِّى لَأَجِدُ فِى وَجْهِهِ عُنْصُرَ الْكَرَمِ ، وَأَرَى فِى مَلَامِحِهِ مَخَايِلَ الذَّكَاءِ .

قَالَتْ خَدِيجَةُ : يُقَالُ إِنَّهُ ابْنُ نِعْمَةٍ ، أَصَابَتْهُ خَيْلٌ مِنْ بَنِي الْقَيْنِ بْنِ جِسْرٍ ، فَبَاعُوهُ بِسُوقِ حُبَاشَةَ .

وَسَأَلَ مُحَمَّدٌ الْغُلَامَ عَنِ اسْمِهِ ، فَذَكَرَهُ لَهُ ، وَسَأَلَهُ عَنْ نَسَبِهِ ، فَأَجَابَهُ :

أَبِي حَارِثَةُ بْنُ شُرَحْبِيلَ بْنِ كَعْبٍ ، وَأُمِّي سُعْدَى بِنْتُ ثَعْلَبَةَ ، مِنْ بَنِي مَعْنٍ مِنْ طَيِّئٍ .

وَسَأَلَ مُحَمَّدٌ زَوْجَتَهُ أَنْ تَهَبَ لَهُ زَيْدًا . فَأَجَابَتْ : هُوَ لَكَ يَاابْنَ الْعَمِّ .

فَأَعْتَقَ مُحَمَّدٌ الْغُلَامَ لِسَاعَتِهِ ، وَصَيَّرَهُ مِنْهُ بِمَثَابَةِ الِابْنِ ! ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى وَالِدَيِ الْغُلَامِ مَنْ يُطَمْئِنُهُمَا عَلَى مَصِيرِ وَلَدِهِمَا .

وَجَاءَ أَبُو الْغُلَامِ وَعَمُّهُ ، يَسْأَلَانِ مُحَمَّدًا أَنْ يَفْدِيَا زَيْدًا مِنْهُ . فَقَالَ لَهُمَا مُحَمَّدٌ : أَوَغَيْرَ ذَٰلِكَ ؟ !

قَالَا : وَمَا هُوَ ؟

قَالَ : أَدْعُوهُ وَأُخْبِرُهُ . فَإِنِ اخْتَارَكُمَا فَهُوَ لَكُمَا دُونَ فِدَاءٍ ، وَإِنِ اخْتَارَنِي فَوَاللهِ مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَى مَنِ اخْتَارَنِي أَحَدًا .

قَالَا : قَدْ زِدْتَ عَلَى النَّصَفِ .

وَتَخَيَّرَ زَيْدٌ الْبَقَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ عَلَى الذَّهَابِ مَعَ أَبِيهِ وَعَمِّهِ . فَأَخَذَ مُحَمَّدٌ بِيَدِهِ ، وَخَرَجَ بِهِ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ قُرَيْشٍ يَقُولُ : اشْهَدُوا أَنَّ هٰذَا ابْنِي وَارِثًا وَمَوْرُوثًا !

وَانْصَرَفَ حَارِثَةُ مُرْتَاحَ النَّفْسِ ، مُطْمَئِنَّ الْقَلْبِ عَلَى وَلَدِهِ ، وَبَقِيَ زَيْدٌ إِلَى جَانِبِ مُحَمَّدٍ ، حَتَّى بُعِثَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ خَدِيجَةَ وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

وَظَلَّ يُعْرَفُ بِزَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِيهِ وَفِيمَنْ كَانَ مِثْلَهُ : « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ ... »

فَدُعِيَ زَيْدٌ حِينَئِذٍ بِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ .

وَزَوَّجَ الرَّسُولُ زَيْدًا مِنْ مَوْلَاتِهِ الْحَبَشِيَّةِ أُمِّ أَيْمَنَ ، فَوَلَدَتْ لَهُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ . وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ ، وَهَاجَرَ النَّبِيُّ وَأَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ أَنْ أَرْسَلَ النَّبِيُّ يَخْطُبُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ لِزَيْدٍ . وَكَانَ أَنْ رَفَضَتْ زَيْنَبُ وَأَخُوهَا عَبْدُ اللهِ هٰذَا الزَّوَاجَ غَيْرَ الْمُتَكَافِئِ بَيْنَ بِنْتِ أُمَيْمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ سَيِّدِ بَنِي هَاشِمٍ ، وَبَيْنَ أَحَدِ الْمَوَالِي ، وَإِنْ كَانَ هٰذَا الْمَوْلَى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ، مَوْلَى رَسُولِ اللهِ الَّذِي يُنْزِلُهُ مِنْ نَفْسِهِ مَنْزِلَةَ الْوَلَدِ .

وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ قَوْلَهُ :

« مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » .

وَعَرَفَتْ زَيْنَبُ ، وَعَرَفَ أَخُوهَا ، أَنَّ زَوَاجَ زَيْنَبَ مِنَ ابْنِ حَارِثَةَ هُوَ قَضَاءُ اللهِ وَإِرَادَةُ رَسُولِهِ ، فَأَذْعَنَتْ زَيْنَبُ لِهٰذَا ،

وَذَهَبَ أَخُوهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ يَعْتَذِرُ عَنْ رَفْضِهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ تَزْوِيجَ أُخْتِهِ مِنْ زَيْدٍ، وَهُوَ يَقُولُ لِلرَّسُولِ:

مُرْنِي بِمَا شِئْتَ.

وَتَزَوَّجَتْ زَيْنَبُ مِنْ زَيْدٍ تَنْفِيذًا لِأَمْرِ اللهِ، وَنُزُولًا عَلَى إِرَادَةِ رَسُولِ اللهِ، وَلَٰكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْسَى أَنَّهَا الْحَسِيبَةُ النَّسِيبَةُ، سَلِيلَةُ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ، وَأَنَّ زَوْجَهَا مَوْلًى، وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ يَجْعَلُهُ بِمَثَابَةِ الْوَلَدِ، فَهُوَ يُدْعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ.

وَهٰكَذَا لَمْ يَسْتَطِعْ زَيْدٌ أَنْ يَجِدَ مِنْ زَيْنَبَ مَا يَنْتَظِرُ كُلُّ رَجُلٍ أَنْ يَجِدَهُ فِي امْرَأَتِهِ، وَلَا مَا يَجِبُ لِكُلِّ زَوْجٍ أَنْ يَنَالَهُ مِنْ زَوْجِهِ: فَلَا تَعَاطُفَ، وَلَا تَوَادَّ، وَلَا تَرَاحُمَ، وَلَا إِلْفَ، وَلَا أَيَّ شَيْءٍ مِمَّا يَكُونُ بَيْنَ الزَّوْجِ وَزَوْجِهِ.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ بِزَيْنَبَ وَزَيْدٍ وَهُمَا عَلَى حَالِهِمَا هٰذِهِ، وَكُلَّمَا شَكَا زَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ مَا يَلْقَاهُ مِنْ تَأَفُّفِ زَيْنَبَ بِهِ وَضَجَرِهَا مِنْهُ، وَإِعْرَاضِهَا عَنْهُ، وَبَرَمِهَا بِهِ — نَصَحَهُ الرَّسُولُ بِالصَّبْرِ، وَهَوَّنَ عَلَيْهِ الْأَمْرَ.

وَأَوْحَى اللهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنَّ زَيْنَبَ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى إِرَادَةِ رَسُولِ اللهِ ، وَقَبِلَتِ الزَّوَاجَ مِنْ زَيْدٍ لِتَكُونَ قُدْوَةً لِبَنَاتِ الْعَرَبِ الشَّرِيفَاتِ فِي الزَّوَاجِ مِمَّنْ هُمْ دُونَهُنَّ مَنْزِلَةً — سَيُكْرِمُهَا اللهُ ، وَسَيُكَافِئُهَا ، بَعْدَ أَنْ تَطَلَّقَ مِنْ زَيْدٍ ، بِأَنْ يُزَوِّجَهَا مِنْ رَسُولِهِ .

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ أُخَرُ ، وَزَيْدٌ عَلَى حَالِهِ مَعَ زَوْجِهِ ، وَرَسُولُ اللهِ يُوَالِيهِ بِالنُّصْحِ ، وَيَحُثُّهُ عَلَى الصَّبْرِ ، حَتَّى جَاءَ يَوْمٌ افْتَقَدَ فِيهِ النَّبِيُّ زَيْدًا ، فَذَهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ يَطْلُبُهُ فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ ، فَلَمَّا طَرَقَ الْبَابَ ، وَعَلِمَتْ زَيْنَبُ أَنَّ الرَّسُولَ بِبَابِهَا ، وَلَمَّا كَانَ زَيْدٌ غَيْرَ مَوْجُودٍ بِالدَّارِ ، هَرْوَلَتْ إِلَى الرَّسُولِ تَسْتَقْبِلُهُ وَتُرَحِّبُ بِهِ ، وَتَدْعُوهُ إِلَى الدُّخُولِ . فَلَمَّا سَأَلَهَا عَنْ زَوْجِهَا زَيْدٍ أَجَابَتْ :

لَيْسَ هُوَ هَاهُنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، فَادْخُلْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي .

وَأَبَى الرَّسُولُ أَنْ يَدْخُلَ ، وَوَلَّى ، وَهُوَ يُتَمْتِمُ بِبَعْضِ أَلْفَاظٍ تَبَيَّنَتْ فِي بَعْضِهَا زَيْنَبُ تَسْبِيحَ الرَّسُولِ لِلّهِ بِقَوْلِهِ :

سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ ، سُبْحَانَ اللهِ مُصَرِّفِ الْقُلُوبِ !

وَجَاءَ زَيْدٌ إِلَى دَارِهِ فَأَخْبَرَتْهُ زَيْنَبُ بِمَجِيءِ الرَّسُولِ وَانْصِرَافِهِ ، فَسَأَلَهَا :

أَلَا قُلْتِ لَهُ : ادْخُلْ ؟!

قَالَتْ : عَرَضْتُ عَلَيْهِ ذٰلِكَ فَأَبَى . قَالَ :

أَفَسَمِعْتِهِ يَقُولُ شَيْئًا ؟

قَالَتْ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ حِينَ وَلَّى : سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ ! سُبْحَانَ اللهِ مُصَرِّفِ الْقُلُوبِ !

وَفَكَّرَ زَيْدٌ بُرْهَةً فِيمَا سَمِعَ مِنْ زَوْجِهِ ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ الرَّسُولَ سَوْفَ يَأْذَنُ لَهُ فِي فِرَاقِهَا ، فَذَهَبَ إِلَى الرَّسُولِ يَقُولُ :

يَا رَسُولَ اللهِ ، بَلَغَنِي أَنَّكَ جِئْتَ إِلَى مَنْزِلِي ، فَهَلَّا دَخَلْتَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي . . . !! ثُمَّ اسْتَمَرَّ يَقُولُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَأُفَارِقُهَا ؟

فَسَأَلَهُ الرَّسُولُ : مَالَكَ ؟! أَرَابَكَ مِنْهَا شَيْءٌ ؟!

قَالَ زَيْدٌ : لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا رَابَنِي مِنْهَا شَيْءٌ ، وَلَا رَأَيْتُ إِلَّا خَيْرًا .

عِنْدَئِذٍ عَادَ الرَّسُولُ إِلَى نُصْحِ زَيْدٍ بِقَوْلِهِ :

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ، وَاتَّقِ اللهَ .

وَالرَّسُولُ يَعْلَمُ أَنَّ زَيْنَبَ سَوْفَ تُطَلَّقُ مِنْ زَيْدٍ ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَتَزَوَّجُهَا ، وَلٰكِنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ ذٰلِكَ فِي نَفْسِهِ ، وَيَخْشَى مَقَالَةَ النَّاسِ .

وَأَمْسَكَ زَيْدٌ عَلَيْهِ زَوْجَتَهُ ، وَلٰكِنْ كَانَ ذٰلِكَ إِلَى حِينٍ ، فَمَا اسْتَطَاعَ زَيْدٌ أَنْ يُمْسِكَ عَلَى زَيْنَبَ بَعْدَ ذٰلِكَ . فَقَدْ ظَلَّ زَيْدٌ دَائِمَ الشَّكْوَى مِنْ كِبْرِ زَيْنَبَ وَتَعَاظُمِهَا عَلَيْهِ حَتَّى انْتَهَى بِهِمَا الْأَمْرُ إِلَى الطَّلَاقِ .

وَانْتَهَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ مِنْ زَيْدٍ ، وَالنَّبِيُّ مُتَرَدِّدٌ فِي التَّقَدُّمِ إِلَى خِطْبَةِ زَيْنَبَ ؛ فَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يُحَرِّمُونَ زَوَاجَ الرِّجَالِ مِنْ أَرَامِلِ أَدْعِيَائِهِمْ وَمُطَلَّقَاتِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَهُمْ فِي مَنْزِلَةِ الْأَبْنَاءِ ، كَمَا كَانُوا يُحَرِّمُونَ زَوَاجَ الْأَدْعِيَاءِ مِنْ أَرَامِلِ الَّذِينَ

يَتَبَنَّوْنَهُمْ وَمُطَلَّقَاتِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَهُمْ فِى مَنْزِلَةِ الآبَاءِ . وَكَانَ زَيْدٌ مِنَ الرَّسُولِ بِمَنْزِلَةِ الِابْنِ ، وَكَانَتْ زَيْنَبُ بِزَوَاجِهَا مِنْ زَيْدٍ بِمَثَابَةِ زَوْجَةِ الِابْنِ . فَكَيْفَ يَتَقَدَّمُ لِخِطْبَتِهَا لِنَفْسِهِ .. ؟! وَمَا الَّذِى سَوْفَ يَتَقَوَّلُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ .. ؟! وَكَيْفَ يَسْتَنُّ لَهُمْ سُنَّةَ زَوَاجِ الْمُتَبَنِّى مِنْ زَوْجِ مُتَبَنَّاهُ ، وَزَوَاجِ الْمُدَّعِى مِنْ زَوْجِ مَنِ ادَّعَاهُ ، وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رُسُوخٍ فِى عَقِيدَتِهِمْ ؟ !

وَمَرَّتْ بِالرَّسُولِ لَحَظَاتٌ مِنَ الْحَيْرَةِ وَالتَّسَاؤُلِ كَمَا مَرَّتْ أَوْقَاتٌ مِنَ الْحَيْرَةِ وَالْحَرَجِ ، وَهُوَ يَخْشَى الْإِقْدَامَ عَلَى خِطْبَةِ زَيْنَبَ ، كَاتِمًا مَا بِنَفْسِهِ مِنَ الرَّغْبَةِ فِى الزَّوَاجِ مِنْهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْوَحْىُ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ إِلَى عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ سُرِّىَ عَنْهُ وَهُوَ يَبْتَسِمُ وَيَقُولُ :

مَنْ يَذْهَبُ إِلَى زَيْنَبَ يُبَشِّرُهَا بِأَنَّ اللهَ زَوَّجَنِيهَا ؟

وَتَلَا الرَّسُولُ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ،

وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ؛ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرًا مَفْعُولًا » .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ تَصِفُ مَا اعْتَرَاهَا عِنْدَمَا عَلِمَتْ أَنَّ الرَّسُولَ سَوْفَ يَتَزَوَّجُ زَيْنَبَ : فَأَخَذَنِي مَا قَرُبَ وَمَا بَعُدَ لِمَا يَبْلُغُنَا مِنْ جَمَالِهَا ، وَأُخْرَى هِيَ أَعْظَمُ الْأُمُورِ وَأَشْرَفُهَا ، مَا صَنَعَ اللهُ بِهَا . زَوَّجَهَا . فَقُلْتُ : تَفْخَرُ عَلَيْنَا بِهَذَا .

وَمَضَتْ سَلْمَى خَادِمَةُ الرَّسُولِ تُبَشِّرُ زَيْنَبَ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهَا بِهِ بِتَزْوِيجِهَا مِنْ رَسُولِهِ .

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ لِزَيْدٍ : مَا أَجِدُ فِي نَفْسِي أَوْثَقَ مِنْكَ ، فَاخْطُبْ زَيْنَبَ عَلَيَّ .

وَذَهَبَ زَيْدٌ إِلَى زَيْنَبَ يَخْطُبُهَا عَلَى الرَّسُولِ ، وَقَدْ عَظُمَتْ فِي نَفْسِهِ ، فَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا تَوْقِيرًا لَهَا ، لِمَا حَبَاهَا اللهُ وَرَسُولُهُ بِهِ . وَأَخْبَرَ زَيْدٌ زَيْنَبَ بِمَا جَاءَهَا مِنْ أَجْلِهِ ، وَفِيمَا

بَعَثَهُ الرَّسُولُ فِيهِ ، فَتَرَكَتْ مَا بِيَدِهَا فَرِحَةً مَسْرُورَةً جَذِلَةً ، وَقَامَتْ تُصَلِّى ، وَتَسْجُدُ لِلّهِ شُكْرًا .

وَزُفَّتْ زَيْنَبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ، وَأَوْلَمَ الرَّسُولُ عَلَيْهَا بِأَنْ ذَبَحَ شَاةً ، وَظَلَّ النَّاسُ يَتَوَافَدُونَ إِلَى بَيْتِ الرَّسُولِ يَطْعَمُونَ الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ حَتَّى امْتَدَّ النَّهَارُ . وَهٰكَذَا دَخَلَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ إِلَى بَيْتِ الرَّسُولِ زَوْجَةً مُعَزَّزَةً مُكَرَّمَةً ، تَتِيهُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ بِجَمَالِهَا ، وَتَفْخَرُ عَلَيْهِنَّ بِقَوْلِهَا :

إِنِّى وَاللهِ مَا أَنَا كَأَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ رَسُولِ اللهِ ، زَوَّجَهُنَّ أَهْلُهُنَّ ، وَزَوَّجَنِى اللهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمٰوَاتٍ . وَأَنْزَلَ فِيَّ قُرْآنًا يَقْرَؤُهُ الْمُسْلِمُونَ لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ .

وَشَعَرَ نِسَاءُ النَّبِيِّ بِمَا لِزَيْنَبَ مِنْ مَكَانَةٍ أَوْلَاهَا إِيَّاهَا اللهُ ، وَشَمِلَهَا بِهَا رَسُولُهُ ، وَشَعَرْنَ بِحُبِّ الرَّسُولِ لَهَا ، وَأَحْسَسْنَ بِمَيْلِهِ إِلَيْهَا . وَكَانَتْ أَكْثَرُهُنَّ بِهَذَا الشُّعُورِ حِسًّا وَدِرَايَةً زَوْجَةَ الرَّسُولِ الْمُحَبَّبَةَ إِلَى قَلْبِهِ : عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ؛ فَقَدْ شَعَرَتْ عَائِشَةُ بِمَا احْتَلَّتْ زَيْنَبُ مِنْ مَكَانَةٍ فِي قَلْبِ الرَّسُولِ قَارَبَتْ أَنْ تُسَاوِيَ مَكَانَتَهَا هِيَ فِي قَلْبِهِ ، وَأَحَسَّتْ بِمَا نَالَتْ زَيْنَبُ مِنْ رِضَاهُ ، وَحَازَتْ مِنْ إِعْجَابِهِ ، حَتَّى لَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ فِي ذَلِكَ :

لَمْ تَكُنْ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ تُنَاصِبُنِي غَيْرَ زَيْنَبَ .

كَمَا كَانَتْ تَقُولُ عَنْ حُبِّ الرَّسُولِ لِزَوْجَتَيْهِ : زَيْنَبَ وَأُمِّ سَلَمَةَ .

كَانَتَا أَحَبَّ نِسَائِهِ إِلَيْهِ — فِيمَا أَحْسَبُ — بَعْدِي .

وَكَانَ لِشُعُورِ زَوْجَاتِ النَّبِيِّ بِمَا لِزَيْنَبَ مِنَ الْمَكَانَةِ لَدَى

الرَّسُولِ أَنْ شَعَرْنَ بِالْغَيْرَةِ مِنْ زَيْنَبَ ، وَعَدَدْنَهَا أَخْطَرَ مُنَافِسَةٍ لَهُنَّ فِي حُبِّ الرَّسُولِ ، وَكَانَتْ أَكْثَرُ الزَّوْجَاتِ أَيْضًا بِهٰذَا الشُّعُورِ حَسَاسِيَةً عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ؛ فَلَمْ تَسْتَطِعْ عَائِشَةُ أَنْ تَكْتُمَ مَا بِنَفْسِهَا مِنْ غَيْرَةٍ مِنْ زَيْنَبَ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَسْكُتَ وَلَا أَنْ تَصْبِرَ ، حِينَمَا كَانَتْ تَرَى رَسُولَ اللهِ يُطِيلُ الْمُقَامَ عِنْدَ زَيْنَبَ فِي أَثْنَاءِ دَوْرَتِهِ الْيَوْمِيَّةِ عَلَى نِسَائِهِ لِتَفَقُّدِ شُئُونِهِنَّ ، فَكَانَتْ تَسْعَى إِلَى زَوْجَةِ رَسُولِ اللهِ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ — وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ عَائِشَةُ تَصْطَفِيهَا ، وَتَتَّخِذُ مِنْهَا صَدِيقَةً مِنْ دُونِ نِسَاءِ النَّبِيِّ — لِتَتَّفِقَ مَعَهَا عَلَى تَدْبِيرِ حِيلَةٍ تَجْعَلُ النَّبِيَّ لَا يُطِيلُ الْمُقَامَ عِنْدَ زَيْنَبَ .

وَكَانَ أَنِ اتَّفَقَتْ هِيَ وَحَفْصَةُ ، وَأَشْرَكَتَا مَعَهُمَا فِي هٰذَا الِاتِّفَاقِ زَوْجَةَ الرَّسُولِ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ ، عَلَى أَنَّ أَيَّتَهُنَّ يَجِيئُهَا الرَّسُولُ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْ عِنْدِ زَيْنَبَ تَقُولُ لَهُ : رَائِحَتُكَ مَغَافِيرُ « وَالْمَغَافِيرُ طَعَامٌ حُلْوٌ ذُو رَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ » وَكَانَ النَّبِيُّ يَكْرَهُ الرَّائِحَةَ الْكَرِيهَةَ .

فَلَمَّا غَادَرَ النَّبِيُّ زَيْنَبَ وَجَاءَ إِلَى عَائِشَةَ فِي دَوْرَتِهِ الْيَوْمِيَّةِ عَلَى نِسَائِهِ ، قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ : (إِنِّي أَشَمُّ رَائِحَةَ مَغَافِيرَ ، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ) ؟

فَلَمَّا أَتَى حَفْصَةَ قَالَتْ لَهُ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ . وَهٰكَذَا سَأَلَتْهُ سَوْدَةُ ، فَلَمَّا أَجَابَهَا بِالنَّفْيِ ، سَأَلَتْ : فَمَا هٰذِهِ الرِّيحُ ؟ !

قَالَ : سَقَتْنِي زَيْنَبُ شَرْبَةً مِنْ عَسَلٍ .

قَالَتْ سَوْدَةُ بِلَهْجَةِ الَّتِي أَدْرَكَت السَّبَبَ : رَعَتْ نَحْلَةَ الْعَرْفَطَ » أَيْ أَنَّ النَّحْلَةَ الَّتِي تُخْرِجُ الْعَسَلَ رَعَتِ الْعَرْفَطَ ، وَهوَ الشَّجَرَةُ الَّتِي تُثْمِرُ الْمَغَافِيرَ » .

فَكَانَ مِنْ هٰذِهِ الْمُؤَامَرَةِ الَّتِي تَآمَرَتْهَا بَعْضُ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ نَتِيجَةَ غَيْرَتِهِنَّ مِنَ احْتِبَاسِ الرَّسُولِ عِنْدَ زَيْنَبَ — أَنْ حَرَّمَ الرَّسُولُ شُرْبَ الْعَسَلِ عِنْدَ زَيْنَبَ . وَبِذٰلِكَ زَالَ السَّبَبُ الَّذِي كَانَ يَحْتَبِسُهُ عِنْدَهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا ، وَحُرِمَتْ زَيْنَبُ مِنْ مُقَامِ الرَّسُولِ لَدَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ ضَرَائِرِهَا .

وَكَمَا كَانَتْ عَائِشَةُ الزَّوْجَةُ الْحَبِيبَةُ مِنَ الرَّسُولِ تَغَارُ مِمَّنْ

يُنَافِسْنَهَا فِى حُبِّ زَوْجِهَا — كَانَتْ زَيْنَبُ أَيْضًا تَغَارُ مِنْ شِدَّةِ تَعَلُّقِ النَّبِيِّ بِعَائِشَةَ ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الرَّسُولَ كَانَ يَقْسِمُ أَوْقَاتَهُ بِالْعَدْلِ بَيْنَ نِسَائِهِ : فَيَدُورُ عَلَيْهِنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَتَفَقَّدُ أُمُورَهُنَّ ، وَيَرْعَى شُئُونَهُنَّ ، ثُمَّ يَبِيتُ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ لَيْلَةً ؛ وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ يُسَاوِيهِنَّ فِى النَّفَقَةِ ، وَيَقْسِمُ بَيْنَهُنَّ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ مِنْ هَدَايَا الْمُسْلِمِينَ — كَانَتْ زَيْنَبُ وَنِسَاءُ النَّبِيِّ يَنْفِسْنَ عَلَى عَائِشَةَ تَحَرِّى الْمُسْلِمِينَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَهَا ، إِذْ يَبْعَثُونَ بِهَا إِلَى الرَّسُولِ فِى بَيْتِهَا ، نَاشِدِينَ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ مَرْضَاةَ الرَّسُولِ ، لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ مَنْزِلَةِ عَائِشَةَ ، وَمَكَانَتِهَا عِنْدَهُ .

وَتَزَعَّمَتْ زَيْنَبُ مُجْتَمَعًا لِزَوْجَاتِ الرَّسُولِ يَتَنَاقَشْنَ وَيَتَشَاوَرْنَ فِى هٰذَا الْأَمْرِ ، وَاتَّفَقَتْ مَعَهُنَّ فِى هٰذَا الْمُجْتَمَعِ عَلَى أَنْ يَطْلُبْنَ مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ الرَّسُولِ السِّفَارَةَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ أَبِيهَا ، بِأَنْ تَطْلُبَ مِنْهُ مُسَاوَاتَهُنَّ بِعَائِشَةَ ، بِأَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ أَنْ يُرْسِلُوا إِلَيْهِ هَدَايَاهُمْ أَيْنَمَا كَانَ . وَدَخَلَتْ فَاطِمَةُ عَلَى الرَّسُولِ وَعَائِشَةُ عِنْدَهُ تَقُولُ : إِنَّ نِسَاءَكَ أَرْسَلْنَنِى إِلَيْكَ ، وَهُنَّ يَنْشُدْنَكَ

الْعَدْلَ فِى ابْنَةِ أَبِى قُحَافةَ ، وَسَأَلَ النَّبِيُّ ابْنَتَهُ : أَيْ بُنَيَّةُ ، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ ؟

قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَأَحِبِّيهَا (يَعْنِى عَائِشَةَ) .

وَعَادَتْ فَاطِمَةُ إِلَى زَوْجَاتِ الرَّسُولِ تُعَرِّفُهُنَّ مَا كَانَ ، وَلٰـكِنَّ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ لَمْ يَقْتَنِعْنَ بِمَا جَاءَتْهُنَّ بِهِ فَاطِمَةُ ، وَطَلَبْنَ مِنْهَا أَنْ تُعَاوِدَ سِفَارَتَهَا بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ أَبِيهَا ، وَرَفَضَتْ فَاطِمَةُ أَنْ تُعَاوِدَ أَبَاهَا فِيمَا رَدَّهَا عَنْهُ . فَلَمْ تَجِدْ زَوْجَاتُ النَّبِيِّ حِينَئِذٍ أَحَدًا خَيْرًا مِنْ زَيْنَبَ يُوفِدْنَهَا سَفِيرَةً لَهُنَّ إِلَى زَوْجِهِنَّ الرَّسُولِ . وَذَهَبَتْ تَقُومُ بِوَسَاطَتِهَا وَهِىَ تَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ مَكَانَتَهَا عِنْدَ الرَّسُولِ ، وَتُحِسُّ بِمَقْدِرَتِهَا عَلَى مُوَاجَهَةِ عَائِشَةَ الْحَبِيبَةِ الْمُقَرَّبَةِ إِلَى قَلْبِ زَوْجِهَا .

وَلَمَّا اسْتَأْذَنَتْ زَيْنَبُ عَلَى الرَّسُولِ . قَالَ : هٰذِهِ زَيْنَبُ فَأْذَنُوا لَهَا ، وَكَلَّمَتْ زَيْنَبُ الرَّسُولَ وَعَائِشَةُ مَعَهُ فِيمَا وَفَدَتْ إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِهِ . وَاسْتَطَالَ بِزَيْنَبَ الْكَلَامُ حَتَّى نَالَتْ بِكَلَامِهَا عَائِشَةَ بِمَنَالٍ كَبِيرٍ . وَغَضِبَتْ عَائِشَةُ لِمَا نَالَتْهَا بِهِ زَيْنَبُ ،

وتحفزت لِلردّ عليها بمَا نالتها بِهِ. وَلَكِنَّ الرَّسُولَ أشار لها أنْ تسكتَ. وَسكتت. وَلَكِنَّ زَيْنَبَ اندفعت بِكُلِّ مَا تُحِسُّهُ مِنَ غَيْظٍ وَغَيْرَةٍ، وَبِكُلِّ مَا تَشْعُرُ بِهِ مِنْ أَنَّ مَرْكَزَهَا وَمَكَانَتَهَا يُؤَهِّلانِهَا، إِلَى الْمُبَالَغَةِ فِى النَّيْلِ مِنْ عَائِشَةَ حَتَّى لَمْ يَجِدْ مَعَهُ الرَّسُولُ بُدًّا مِنْ أَنْ يَتْرُكَ لِعَائِشَةَ حَقَّ الرَّدِّ عَلَى زَيْنَبَ. وَكَانَ مِنْ تَأْثِيرِ مَا كَانَتْ تَشْعُرُ بِهِ زَيْنَبُ مِنْ غَيْظٍ وَغَيْرَةٍ، تِجَاهَ مَا كَانَ يُهْدَى إِلَى الرَّسُولِ فِى يَوْمِ عَائِشَةَ ؛ أَنْ أُهْدِيَتْ إِلَى الرَّسُولِ ذَاتَ يَوْمٍ شَاةٌ، فَأَمَرَ بِذَبْحِهَا، وَطَلَبَ مِنْ عَائِشَةَ أَنْ تُرْسِلَ إِلَى كُلٍّ مِنْ زَوْجَاتِهِ بِنَصِيبٍ مِنْهَا ؛ وَلَكِنَّ زَيْنَبَ لَمْ تَقْبَلْ نَصِيبَهَا، وَرَدَّتْهُ عَلَى الرَّسُولِ. فَطَلَبَ الرَّسُولُ مِنْ عَائِشَةَ أَنْ تَزِيدَهَا ؛ فَزَادَتْ عَائِشَةُ فِى نَصِيبِ زَيْنَبَ، وَلَكِنَّ زَيْنَبَ رَدَّتْهُ كَذَلِكَ، عِنْدَئِذٍ قَالَتْ عَائِشَةُ لِلرَّسُولِ : أَقْمَأَتْ وَجْهَكَ حِينَ تَرُدُّ عَلَيْكَ الْهَدِيَةَ « أَىْ أَذَلَّتْ وَجْهَكَ » .

فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ مِنْ ذَلِكَ الْقَوْلِ وَقَالَ : أَنْتُنَّ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ أَنْ تُقْمِئْنَنِى . . . . وَاللهِ لَا أَدْخُلُ عَلَيْكُنَّ شَهْرًا .

وَكَانَ هٰذَا السَّبَبُ مُضَافًا إِلَيْهِ أَسْبَابٌ أُخْرَى أَتَتْهَا بَعْضُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلُ — سَبَبًا فِي اعْتِزَالِ رَسُولِ اللّٰهِ نِسَاءَهُ شَهْرًا ؛ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِنَّ فِيهِ ، حَتَّى وَجَفَتْ قُلُوبُ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ خَوْفًا وَجَزَعًا ، وَامْتَلَأَتْ نُفُوسُهُنَّ نَدَمًا عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُنَّ فِي حَقِّ زَوْجِهِنَّ الْكَرِيمِ .

وَمَعَ أَنَّ زَيْنَبَ كَانَتْ هِيَ وَأُمُّ سَلَمَةَ أَحَبَّ نِسَاءِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ بَعْدَ عَائِشَةَ ، وَمَعَ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي كَانَتْ تَقُولُ عَنْهَا عَائِشَةُ : لَمْ تَكُنْ وَاحِدَةٌ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ تُنَاصِبُنِي غَيْرَ زَيْنَبَ . . . كَانَ صَلَاحُ زَيْنَبَ وَوَرَعُهَا يَمْنَعَانِهَا مِنْ أَنْ تُؤْذِيَ عَائِشَةَ ، أَوْ أَنْ تَنَالَ مِنْهَا مَنَالًا جَسِيمًا فِي غَيْبَتِهَا . فَقَدْ كَانَ لَهَا فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ الَّذِي اتُّهِمَتْ بِهِ عَائِشَةُ ظُلْمًا وَزُورًا مَوْقِفٌ مُشَرِّفٌ دَلَّ عَلَى صَلَاحِهَا ، وَأَظْهَرَ تَقْوَاهَا ؛ فَقَدْ شَهِدَتْ حِينَ سُئِلَتْ عَمَّا تَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ عَائِشَةَ . فَقَالَتْ : أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي ، وَاللّٰهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا .

وَكَانَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ مِمَّنْ شَارَكَ فِي حَدِيثِ

الْإِفْكِ عَنْ عَائِشَةَ ، يَدْفَعُهَا إِلَى ذٰلِكَ مَا كَانَ بَيْنَ عَائِشَةَ وَزَيْنَبَ أُخْتِهَا مِمَّا يَكُونُ بَيْنَ الضَّرَائِرِ .

وَكَانَتْ زَيْنَبُ إِلَى جَانِبِ صَلَاحِهَا وَتَقْوَاهَا امْرَأَةً نَشِيطَةً عَامِلَةً ، تَدْبُغُ وَتَخْرِزُ ، وَكَانَ مِنَ الْمَعْرُوفِ الْمَشْهُورِ عَنْهَا أَنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ ، تَعْمَلُ بِيَدَيْهَا مَا تُحْسِنُهُ ، ثُمَّ تَتَصَدَّقُ بِمَا تَعْمَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ .

٤

وَهٰذَا هُوَ الَّذِى كَانَتْ عَلَيْهِ حَيَاةُ زَيْنَبَ مِنْ بَعْدِ وَفَاةِ النَّبِيِّ حَتَّى مَاتَتْ ، وَكَانَتْ هِيَ أُولَى مَنْ لَحِقَتْ بِزَوْجِهَا مِنْ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ .

فَقَدْ ظَلَّتْ زَيْنَبُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاحِهَا وَتَقْوَاهَا ، وَبِرِّهَا بِالْفُقَرَاءِ ، وَتَصَدُّقِهَا بِمَا تَعْمَلُ بِيَدَيْهَا عَلَى الْأَيْتَامِ وَالْمَسَاكِينِ . حَتَّى بَلَغَ مِنْ إِحْسَانِهَا فِى هٰذَا السَّبِيلِ ؛ أَنَّهُ حِينَمَا أَرْسَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِعَطَائِهِنَّ الَّذِى خَصَّصَهُ لَهُنَّ ، وَكَانَ عَطَاءُ زَيْنَبَ الَّذِى بَعَثَهُ إِلَيْهَا اثْنَىْ عَشَرَ أَلْفًا ، لَمْ تَسْتَطِعْ زَيْنَبُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى هٰذَا الْمَالِ ، وَلَا أَنْ تَمَسَّهُ بِيَدِهَا ، بَلِ اسْتَتَرَتْ مِنْهُ ، وَقَالَتْ : غَفَرَ اللهُ لِعُمَرَ . . . صُبُّوهُ ، وَاطْرَحُوا عَلَيْهِ ثَوْبًا .

ثُمَّ قَالَتْ لِبَرْزَةَ بِنْتِ رَافِعٍ : مُدِّى يَدَكِ ، فَاقْبِضِى مِنْ هٰذَا الْمَالِ، ثُمَّ اذْهَبِى بِهِ إِلَى بَنِى فُلَانٍ . . . وَبَنِى فُلَانٍ . . .

وَجَعَلَتْ تَذْكُرُ لِبَرْزَةَ أَسْمَاءَ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْأَيْتَامِ وَالْأَرَامِلِ وَذَوِى الْحَاجَةِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ تَحْتَ الثَّوْبِ مِنَ الْمَالِ إِلَّا النَّزْرُ الْيَسِيرُ ، فَقَالَتْ لَهَا بَرْزَةُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاللهِ لَقَدْ كَانَ لَنَا فِى هٰذَا حَقٌّ .

قَالَتْ زَيْنَبُ : فَكَمْ مَا تَحْتَ الثَّوْبِ ؟

وَرَفَعَتْ زَيْنَبُ يَدَهَا إِلَى السَّمَاءِ تَبْتَهِلُ إِلَى اللهِ بِقَوْلِهَا :

اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكُنِى عَطَاءٌ لِعُمَرَ بَعْدَ عَامِى هٰذَا . . . اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكْنِى هٰذَا الْمَالُ فِى قَابِلٍ ، فَإِنَّهُ فِتْنَةٌ .

وَبَلَغَ عُمَرَ مَا فَعَلَتْ زَيْنَبُ ، فَقَالَ : هٰذِهِ امْرَأَةٌ يُرَادُ بِهَا الْخَيْرُ .

وَجَاءَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِهَا ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ ، وَقَالَ : قَدْ بَلَغَنِى مَا فَرَّقْتِ .

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهَا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ ، لِتُنْفِقَهَا عَلَى نَفْسِهَا ، فَفَعَلَتْ بِهَا مَا فَعَلَتْ بِالْمَالِ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْهَا مِنْ قَبْلُ .

وَظَلَّتْ زَيْنَبُ تَعْمَلُ بِمَا أَوْصَى الرَّسُولُ زَوْجَاتِهِ بِهِ ،

وتجْتَنِبَ مَا نهَاهُنَّ عَنْهُ ، حَتَّى أَنَّهَا رَفَضَتْ أَنْ تُغَادِرَ دَارَهَا لِحَجٍّ بَيْتِ اللهِ ؛ لِأنَّ الرَّسُولَ قَالَ لِزَوْجَاتِهِ فِي آخِرِ حجَّةٍ حَجَجْنَهَا مَعَهُ : هٰذِهِ الحَجَّةُ ثُمَّ ظُهُورَ الْحُصْرِ – أَىْ لَكُنَّ هٰذِهِ الحَجَّةُ ثُمَّ تلزَمْنَ بُيُوتَكُنَّ ، وَتَجْلِسْنَ عَلَى الحصِيرِ .

فَكَانَتْ زَيْنَبُ وَسَوْدَةُ هُمَا الْوَحِيدَتَانِ مِنْ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ اللَّتَانِ لَمْ تَخْرُجَا لِلْحَجِّ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ .

وَكَانَ مِنْ أَقْوَالِ النَّبِيِّ لِزَوْجَاتِهِ ، يُبَشِّرُهُنَّ بِأَوَّلِ مَنْ تَلْحَقُ بِهِ مِنهُنَّ بَعْدَ مَوْتِهِ :

أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقاً بِي أَطْوَلُكُنَّ يَداً .

فَكَانَ نِسَاءُ النَّبِيِّ إِذَا اجْتَمَعْنَ فِي مَنْزِلِ إِحْدَاهُنَّ بَعْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ ، يَمْدُدْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِلَى الْجِدَارِ ، يَتطَاوَلْنَ فِي أَيَّتِهِنَّ أَطْوَلُ يَدًا ، فَلَمْ يَزَلْنَ يَفعَلْنَ ذٰلِكَ حَتَّى مَاتَتْ زَيْنَبُ ، وَلَمْ تَكُنْ بِأَطْوَلِهِنَّ ، فَعَرَفْنَ حِينَئِذٍ أَنَّ النَّبِيَّ إِنَّمَا أَرَادَ بِطُولِ الْيَدِ الصَّدَقَةَ .

وَكَانَ مِنْ تَصَدُّقِ زَيْنَبَ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَذَوِى الحاجَةِ ، وَمِنْ

حِرْصِهَا عَلَى أَلاَّ تُخَلِّفَ أَوْ تَتْرُكَ شَيْئاً مِنْ بَعْدِهَا دُونَ صَدَقَةٍ — أَنَّهَا كَانَتْ قَدْ أَعَدَّتْ كَفَنَهَا الَّذِي تُكَفَّنُ فِيهِ بَعْدَ مَوْتِهَا.
ثُمَّ خَطَرَ بِبَالِهَا حِينَ مَرِضَتْ، وَحَضَرَتْهَا الْوَفَاةُ، أَنَّ عُمَرَ رُبَّمَا أَرْسَلَ إِلَيْهَا بِكَفَنٍ؟ فَقَالَتْ تُوَصِّي مَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَهْلِهَا:
إِنِّي قَدْ أَعْدَدْتُ كَفَنِي، وَلَعَلَّ عُمَرَ يَبْعَثُ إِلَيَّ بِكَفَنٍ، فَإِنْ بَعَثَ فَتَصَدَّقُوا بِأَحَدِهِمَا. فَلَمَّا مَاتَتْ وَبَعَثَ عُمَرُ إِلَيْهَا بِكَفَنٍ، تَصَدَّقَتْ عَنْهَا أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ بِكَفَنِهَا الَّذِي كَانَتْ قَدْ أَعَدَّتْهُ.

وَأَوْصَتْ زَيْنَبُ أَنْ تُحْمَلَ إِلَى قَبْرِهَا عَلَى سَرِيرِ النَّبِيِّ، وَكَانَ لَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ غَيْرُ صَدِيقِ الرَّسُولِ الْحَمِيمِ، وَخَلِيفَتِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَحُمِلَتْ عَلَيْهِ، وَسُتِرَ النَّعْشُ بِغِطَاءٍ أَشَارَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ عَلَى عُمَرَ بِسَتْرِ النَّعْشِ بِهِ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْحَبَشَةِ، وَكَانَتْ أَسْمَاءُ مِمَّنْ هَاجَرْنَ إِلَى الْحَبَشَةِ بِصُحْبَةِ أَزْوَاجِهِنَّ.

وَكَانَ مَوْتُ زَيْنَبَ فِي يَوْمٍ حَارٍّ قَائِظٍ مِنْ سَنَةِ عِشْرِينَ

لِلْهِجْرَةِ ، فَأَمَرَ عُمَرُ بِضَرْبِ فُسْطَاطٍ عَلَى قَبْرِهَا ، لِيَقِيَ الْحَفَّارِينَ الَّذِينَ يَحْفُرُونَ الْقَبْرَ شِدَّةَ حَرَارَةِ الشَّمْسِ، فَكَانَ أَوَّلَ فُسْطَاطٍ ضُرِبَ عَلَى قَبْرٍ بِالْبَقِيعِ .

وَوَقَفَ عُمَرُ عَلَى قَبْرِ زَيْنَبَ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ فِيهِ — وَكَانَ يَسُرُّهُ أَنْ يُشَارِكَ فِي إِنْزَالِهَا — يَقُولُ لِلنَّاسِ : إِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ حِينَ مَرِضَتْ زَيْنَبُ : مَنْ يُمَرِّضُهَا وَيَقُومُ عَلَيْهَا ؟ فَأَرْسَلْنَ : نَحْنُ . فَرَأَيْتُ أَنْ قَدْ صَدَقْنَ . ثُمَّ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ حِينَ قُبِضَتْ : مَنْ يَغْسِلُهَا وَيُكَفِّنُهَا ؟ ، فَأَرْسَلْنَ : نَحْنُ . فَرَأَيْتُ أَنْ قَدْ صَدَقْنَ . ثُمَّ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ : مَنْ يُدْخِلُهَا قَبْرَهَا ؟ . فَأَرْسَلْنَ : مَنْ كَانَ يَحِلُّ لَهُ الدُّخُولُ عَلَيْهَا فِي حَيَاتِهَا . فَرَأَيْتُ أَنْ قَدْ صَدَقْنَ . فَاعْتَزِلُوا أَيُّهَا النَّاسُ .

فَتَنَحَّى النَّاسُ عَنِ الْقَبْرِ ، وَصَلَّى عُمَرُ عَلَى زَيْنَبَ ، وَكَبَّرَ عَلَيْهَا أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ ، وَقَامَ بِإِنْزَالِهَا إِلَى قَبْرِهَا بَنُو أَخِيهَا ، وَبَنُو أُخْتِهَا .

وَحَزِنَتْ نِسَاءُ النَّبِيِّ عَلَى زَيْنَبَ حُزْنًا شَدِيدًا ، وَبَكَيْنَهَا

بُكَاءً مُرًّا ، وَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ عَنْهَا :

كَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ مُعْجِبَةً ، وَكَانَت امْرَأَةً صَالِحَةً ، صَوَّامَةً ، قَوَّامَةً ، تَصْنَعُ بِيَدَيْهَا مَا تُجِيدُ صُنْعَهُ ، وَتَتَصَدَّقُ بِذٰلِكَ كُلِّهِ عَلَى الْمَسَاكِينِ .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يُنَاصِبُهَا عِنْدَ الرَّسُولِ غَيْرُ زَيْنَبَ ، وَهِيَ تَبْكِي حِينَ بَلَغَهَا نَعْيُ زَيْنَبَ : ذَهَبَتْ حَمِيدَةً نَقِيَّةً ، مَفْزَعَ الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٨٥٨ / ١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر

مجموعة أمهات المؤمنين

نصور للقارئ فى هذه المجموعة حياة كريمات النساء ، وأعلاهن درجة فى العفة والكمال ، وأشدهن ورعاً وتديناً ، وأقربهن إلى الله ؛ هن أمهات المؤمنين ، زوجات الرسول الكريم . ونصور الحقائق الصحيحة التى يجب أن يعرفها كل مسلم ومسلمة ، حتى يتخذوا مما كان يجرى بين النبى وزوجاته هادياً لهم وإماماً . فهو خير زوج : يعطى الزوجة حقها فى حريتها ومالها وفى صلتها الطيبة بأهلها ، وبجيرانها . وهن خير زوجات : يعرفن للزوج حقه ، ويؤدين ما له عليهن من واجبات . ومن هذه المجموعة نتعلم كيف نعالج ما قد يعرض أحياناً من المشكلات التى تكون بين المرء وزوجه على أساس من التسامح الكريم ، والمجاملة الطيبة الرقيقة .

١ – خديجة الطاهرة
٢ – خديجة الزوجة
٣ – خديجة سيدة النساء
٤ – سودة
٥ – عائشة الصبية
٦ – عائشة الحبيبة
٧ – عائشة المبرأة
٨ – عائشة العالمة
٩ – عائشة السياسية
١٠ – حفصة
١١ – أم المساكين وأم سلمة
١٢ – زينب بنت جحش
١٣ – صفية
١٤ – أم حبيبة
١٥ – جويرية وريحانة
١٦ – ميمونة ومارية

ثمن النسخة ٥ قروش

دار المعارف بمصر